﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠﴾ [القصص: 79 - 80]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

مَن كانتِ الدُّنيا هـمَّـه، خـاب ظـنُّـه، وزادَ في الآخرة غمُّه

لمّا ذكرَ سبحانه ردَّ قارونَ على النّاصحينَ له من قومه، الدالَّ على تمرُّده وكِبْره؛ أخبر سبحانه أنَّه خرج على قومه وهو في كامل زينته وأبَّهته[1]؛ ليَكيد لمَن تجرَّأ على نُصحه وزَجره، وليستخفَّ بمشاعرهم، ويبالغَ في إيلامهم. ثمَّ ذكر سبحانه حالَ النّاس عندما رأوا عليه تلك الزّينة: فمنهم مَن تمنَّى أن يُؤتى مثلَما أوتي قارون؛ وذا لِسُفول هِمَمِهم، وقصورِ النَّظر لديهم[2]، وأمّا الذين أوتوا العلمَ والمعرفة باللّه تعالى فقد زَجروا الأغمارَ الذين تمنَّوا حالَ قارون، وحملوهم على الطَّريقة المُثلى من أنَّ النَّظر والتَّمنّي إنّما يكون إلى ما هو أعلى من ذلك وأعظمُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زِينَتِهِۦۖ﴾: (زين) أصل يدلُّ على حُسْن الشَّيء وتحسينِه[3]. والزّينة: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُتَزيَّن به[4]، وهو نقيضُ الشَّين، ممّا لا يُشينُ الإنسانَ في شيءٍ مِن أحواله، لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، فأمّا ما يُزيّنُه في حالةٍ دونَ حالة، فهو شَيْنٌ من وجه[5]. يقال: زانَه كذا،

(1) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 4/ 300.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 631، والبقاعي، نظم الدّرر: 14/ 356.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (زين).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (زين).

وزيَّنه: إذا أظهرَ حُسنَه، إمّا بالفعل أوْ بالقول[1]. وتزيَّن وازَّين وازدان بمعنىً، وهو افتعلَ من الزّينة[2]. والمقصودُ بالزينة في قولِه تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾: الزّينةُ الدُّنيويَّة من المالِ والأثاث والقوَّة والجاه[3].

2) ﴿وَيۡلَكُمۡ﴾: أصل (ويل) يدلُّ على الهلاك والعذاب[4]. ووَيْلٌ: كلمةٌ مثلُ ويح، إلا أنَّها كلمة عذابٍ وقُبح، يقال: ويْلَهُ ووَيْلَك ووَيْلي. والويلُ: كلمةٌ تقال لكلِّ مَن وقع في عذاب أوْ هَلَكَة[5]. والويلُ أيضًا: وادٍ في جهنَّم[6]. والمراد بالويلِ في الآية: الدّعاء بالهلاك، ثمَّ استُعمِل للزَّجر والرَّدع عمّا لا يُرْتَضى[7].

3) ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾: (لقي) أصولٌ يدلُّ أحدُها على طرح الشَّيء[8]. واللِّقاء: مقابلةُ الشَّيء ومصادفتُهُ معًا، وقد يعبَّر به عن كلِّ واحد منهما[9]، يقال: لَقيَه يَلْقاه لِقاءً ولُقًى ولُقيًّا ولُقْيَةً[10]. وملاقاةُ اللّه ﷻ عبارةٌ عن القيامةِ والمصير إليه، كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ [البقرة: 223][11]. واللِّقاء: الملاقاة[12]. والتَّلَقّي: الاستقبالُ، يقال: لقَّيته كذا: إذا استقبلتَه به. وتلقّاه كذا: لَقيَه[13]. والمراد به في الآية: الإيتاء والإعطاء؛ أي: لا يُعطى الأعمالَ الصّالحة أو الجنَّةَ في الآخرة، إلا الصّابرون[14].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُصوِّر لنا المولى ﷻ في هذا البيان القرآنيِّ مظهرًا آخرَ من مظاهر عُجْبِ قارون وغُروره؛ لأنَّه لم يعبأ بنصْحِ قومه وإرشادهم له، وإنَّما خرج على قومه في ثيابه الملوَّنة مفتخرًا بكثرة

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (زين).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (زين).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (زين).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (ويل).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ويل).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ويل).
(7) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 186، والنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/ 659.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(9) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لقي).
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لقي).
(11) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ وابن منظور، لسان العرب: (لقي).
(12) ابن فارس، المجمل والراغب، المفردات: (لقي).
(13) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لقي).
(14) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 223، والقرطبي، أحكام القرآن: 13/ 317.

ماله وشدَّة ثرائه وتنوُّع مراكبه، فاغترَّ به هؤلاء الَّذين يُحِبّون الحياة الدُّنيا وما فيها من متعٍ وزخارفَ فاتنةٍ، فقالوا على سبيل التَّمنّي والانبهار: يا ليت لنا مثل ما أُعْطيَ قارونُ من الجاه والمنصب والمال؛ إنَّه لصاحبُ نصيبٍ وافرٍ من الدُّنيا. وأمّا هؤلاء الَّذين رُزِقوا العلم باللّه، وبما جاءتْ به رُسُلُهُ فقد قالوا على سبيل الرَّدْعِ والزَّجْرِ لهؤلاء المفتونين: كفّوا عن قولكم هذا؛ فإنَّ جزاءَ اللّه في الدّارِ الآخرة خيرٌ مِمّا أوتي قارونُ وأمثالُهُ مِنْ متعِ الدُّنيا وزخارِفها الفانيةِ، ولَكِنْ لِمَنْ آمن باللّه وبرُسُلِهِ فعملَ عملًا صالحًا ابتغاءَ هذا الجزاء؛ لأنَّه لا يوَفَّقُ إليه إلّا الصّابرون على الطّاعاتِ واجتنابِ المحرَّماتِ طمَعًا في ثوابِ ربِّ الأرض والسَّماوات وجزائه[1].

ثـوابُ الـلـه في الآخـرةِ للمتَّقين خـيرٌ مـن زينـة الدّنيا للعاصين

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء) وغرضها:

يصحُّ أن تكون (الفاء) عطفًا على قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ [القصص: 76] مع ما عطفَ عليها وتعلَّق بها، فدلَّت (الفاء) على أنَّ خروجه بين قومه في زينته بعد ذلك كلِّه كان من أجل أنَّه لم يقصِّر عن شيءٍ من سيرته، ولم يتَّعِظ بتلك المواعظ ولا زمنًا قصيرًا، بل أعقبَها بخروجه هذه الخرجةَ المليئةَ صَلَفًا وازدهاءً، فالتَّقدير: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ فَخَرَجَ؛ أي: رفضَ الموعظةَ بقوله وفعله[2].

عـاطـفـة لبيان الـتَّـعـقـيـب وانـعـدام المهلة للتَّفكر في نـصـيـحـة النّاصحين

ويصحُّ أن تكون عطفًا على محذوفٍ دلَّ عليه مساقُ الكلام مِن عدم انتصاحه لِما قيل له، وإظهارِ أسباب البَطَر، فـ(الفاء) فصيحة[3].

ولا يخفى أنَّ الخروج على القوم مُفتخرًا بزينته ومَصْحوبًا بها قد جاءَ عقيبَ النُّصحِ ورفضِه، فكان الرفضُ قوليًّا مصحوبًا بالعمل

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 328 - 331، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، تفسير المنتخب، ص: 588.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 183.

(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 59.

بعده، فلم يكتفِ قارونُ بالقول: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ بل عمدَ إلى تأكيد ذلك الجحودِ بالفعل، فخرج متباهيًا بزينته، وهذا منتهى الجحودِ والغرورِ والإصرار على الكِبْر والعصيان.

دلالة التَّعبير بالماضي:

سـرعـة الـوقـوع وتحقُّق الخروج

التَّعبير بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ دون غيره مناسبٌ لمعنى (الفاء) الدالّ على سُرعة الوقوع وقِصَر الزَّمن بين وعظِ النّاصحين مِن قومه وخروجِه عليهم في زينته، فدلَّ الماضي على استحضار معنى التَّحقُّق في الخروج، وتنفيذِ العزمِ عليه بلا توانٍ. وفعلُ الخروج يدلُّ على أنه كانَ مُحتجِبًا عن القوم في قصره خلالَ مدَّة وعظِهم له بالثني عن غروره وجحوده، فعمدَ إلى الخروج والبروز أمامَ أعينِ الناس؛ ليفتنهم ويزيدهم حرقة وألمًا، والخروجُ من حيثُ هو غيرُ معصية، لكنَّ الدافع إليه والغرضَ الذي يسعى لتحقيقِه هو المعصيةُ ذاتُها.

نكتةُ التعبير بـ﴿عَلَىٰ﴾:

بيـانُ عـلّـةِ إثـمِ الخروج

ورد التعبير بـ﴿عَلَىٰ﴾ عندَ تعدية فعل الخروج في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ دون (إلى)، لأنَّ الأصل في معنى ﴿عَلَىٰ﴾ أنَّها موضوعة للدَّلالة على الاستعلاء حقيقيًّا كان أم مجازيًّا؛ وهي في هذا الموضع للاستعلاء المجازيّ، لبيان ما كان عليه قارونُ من الاعتداد بماله واستعلائه على النّاس، فخرجَ في زينة عظيمةٍ يتباهى بها وكأنَّه يمشي - لمّا خرج - فوقَ رؤوس قومه لا بينهم، وخرج عليهم لا إليهم، فتعدية ﴿فَخَرَجَ﴾ بحرف ﴿عَلَىٰ﴾ دون (إلى) لتضمينه معنى النُّزول إشارةً إلى أنَّه خروجٌ مُتعالٍ مترفّع[1]. وهذا بيانٌ لكون الخروجِ معصيةً؛ إذ رافقَه شعورُ الزَّهْوِ والتكبُّر والخُيَلاء على الله تعالى وعلى خلقه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 183.

نكتةُ التَّعبير بالقوم مضافًا:

يُنتظَر من المرء أن يُحسِن إلى قومه، ولكنَّ قارون قد زاد في غيِّه وظُلمه

آثرَ النظمُ الجليل التعبيرَ عمّن خرجَ عليهم قارونُ بلفظ (القوم) مضافًا إليه في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ إشارةً إلى أنَّه خرج على قومه خاصَّة لا على عموم النّاس، بل على قومه الذين بغى عليهم، وكان المنتظَرُ منه الإحسانَ إليهم، فوقع منه خلافَ ما كان ينبغي. وفيه تعريضٌ بصناديد الكفر من مُشركي قريشٍ الذين سخَّروا قوَّتهم لتعذيب المؤمنين من أقوامهم، خصوصًا أبا لهب عمَّ النَّبيّ ﷺ، وهو الذي جرَّأ النّاس على سبِّ رسول الله ﷺ، بأن كان في مقدِّمة مَن سبَّه وحاربه. ونلمحُ في هذه الإضافة تباينًا في تعامل المتكبِّرين والصالحين مع أقوامهم؛ إذ شانُ المتكبّر الزهوُ على جماعته واستصغارُه لهم، وشأنُ الأنبياء والصّالحين التواضعُ معهم والانتماءُ إليهم، ومحاولةُ إنقاذِهم.

موقعُ الجارّ والمجرور ودلالتُه:

التَّترُّس بالزِّينة والتَّحصُّن بها دليلُ الخواء، وسبيلُ الفناء

قوله تعالى: ﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾ حالٌ من ضمير ﴿فَخَرَجَ﴾[1]، يدلُّ على تقييدِ خروجِه بحالَةٍ معيّنةٍ، وبيانِ هيئةِ قارونَ عندَ الخروج، وجاء الحالُ بعدَ تحديدِ مَن خرج عليهم من القوم؛ ليفيدَ أنَّ هذا الخروج كان خروجَ المغترّين والمتكبِّرين عليهم، والأصلُ في معنى ﴿فِى﴾ أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّةً أوْ زمانيَّة، حقيقيَّةً أوْ مجازيَّة[2]؛ و﴿فِى﴾ في هذا الموضع للظَّرفيَّة المجازيَّة، كأنَّه جعل الزِّينة مكانًا لخروجِه، دلالةً على كثرةِ ما تزيَّن به، فكأنَّ الزِّينة ليستْ عليه، وإنَّما لكثرتها صارتْ مكانًا يحويه، وأنَّ الزِّينة محيطةٌ به.

نكتةُ التَّعبير بالزِّينة مضافةً إليه:

آثرَ النظمُ الجليل استعمالَ لفظ (الزِّينَةُ) في قوله تعالى:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 183.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾، وهي: ما يُتَزَيَّنُ به، ويدلُّ على حُسن الشَّيء وتحسينه، وقد تكون الزِّينة ذاتيَّةً وهْبيَّةً في أصل الخِلقة لا تنفكُّ عن صاحبها، وقد تكون زينةً إضافيَّةً خارجيَّةً مكتسَبَة، وفي هذا التَّركيب إشارةٌ إلى زينة عرضية؛ إذ كانت حالًا له حالة الخروج وليست صفةً لازمةً له، ومن شأن المغترّين والمتكبّرين تجميلُ ظواهرهم وتركُ بواطنِهم قبيحةَ الطبع سيئةَ السَّريرة والطويَّة. وثَمَّ ملمحٌ آخر في الإضافة، وهو أنَّ إضافة الزِّينة إلى ضمير قارون فيه إلماح إلى أنَّها لم تكن زينةً في حقيقة الأمر والواقع، بل زينةٌ من وجهة نظر قارون القاصرةِ، ومَن تمنَّى مكانه من الجُهلاء الّذين يريدون الحياة الدُّنيا، فما كانت علمًا نافعًا، ولا ذرِّيَّة مجاهدةً في سبيل الله، ولا أيَّ شيء ممّا يتقرَّب به إلى الله فيقرِّب صاحبه إلى الجنَّة، بل كانت عرضًا دنيويًا زائلًا لم يؤدَّ حقُّ الله تعالى فيه.

الزِّينة عرضيَّةٌ من غرور الحياة الدَّنيَّة، ليست ذاتيَّة، ولا حقيقيَّة

نكتةُ الفصل:

فُصِلَت جملةُ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ عن سابقتها ولم تُعطَف عليها؛ لما بينهما من كمال الاتِّصال؛ لأنَّها تتنزَّل منها منزلةَ (بدل الاشتمال) لما اشتملت عليه (الزِّينةُ) من أنَّها ممّا يتمنّاه الرّاغبون في الدُّنيا، وذلك جامعٌ لأحوال الرَّفاهيَة على أخصرِ وجه؛ لأنَّ الذين يريدونَ الحياة الدُّنيا، لهم ميولٌ مختلفة، ورغباتٌ متفاوتة، فكلٌّ يتمنَّى أمنيَّة ممّا تلبَّس به قارونُ من الزِّينة، فحصل هذا المعنى مع حصولِ الإخبار عن انقسامِ قومه إلى مغترّين بالزَّخارف العاجلةِ عن غير علم، وإلى علماءَ يُؤثرونَ الآجلَ على العاجل، ولو عُطِفت جملة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ بـ(الواو وبالفاء) لفاتت هذه الخصوصيَّة البليغة، فصارت الجملة إمّا خبرًا مِن

شـأنُ الـجُـهّـال الـرغـبـةُ في دنـيـا الأغـنـيـاءِ ورفاهيّتِهم

جملة الأخبار عن حال قومه، أوْ جزءَ خبرٍ مِن قصَّته[1]. وقد يكون قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾ مثيرًا لسؤالٍ يتبادرُ إلى ذهن المتلقّي، وهو: فماذا كان بعد الخروج من حال الناس؟ فتأتيه الإجابة: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾، فتقع الجملة الثّانية من الأولى موقع الاستئناف البيانيّ لشبهِ كمالِ الاتصال. ونلحظُ سرعةَ القول بعدَ الخروج، فما إنْ خرجَ حتى تمنَّى الراغبونَ في حُطام الدّنيا حالتَه، مُتناسينَ ما عليه من غرور واستكبار وظلم وفجور.

نكتة التَّعبير بالموصول وصلته:

تقوية المعنى وبيان العلَّة في جملة الصِّلة

آثر النظم الجليل التَّعبيرَ بالموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ استغناءً بذكر الوصف بجملة كلاميَّة عن ذكرِ الاسم الخاصّ بهم، لتقوية معنى إرادتهم الحياة الدُّنيا وتمسُّكِهم بها واشتهارهم بذلك. وإيثار التَّعريف بالموصوليَّة كان لأجل تحقيق الوصف بما تضمَّنته جملة الصِّلة، وبيان العلَّة في الحكم، فإنَّما تمنَّوا ما تمنَّوا لأجل أنَّهم يريدون الحياة الدُّنيا، ولو كانوا من أولي العِلم لوقفوا على الحقائق دون الظَّواهر.

دلالة التَّعبير بالمضارع:

طالب الدُّنيا لا يشبع، والمغرورُ بها لا يقنع

أوردَ النصُّ الكريم جملةَ الصّلة مشتملةً على الفعل المضارع، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ لإفادته التَّجدُّدَ والاستمرار، وفي هذا الموضع دلالةٌ على تجدُّد اغترار الجاهلين من قوم قارونَ بزخرف الحياة الدُّنيا وزينتها الظّاهريَّة الزّائفة؛ فكلَّما رأوا منها صنفًا تمنَّوا مثلَه، فهم في نهَم دائم، لا يشبعونَ ولا يقنعون! وفي إسنادِ الفعلِ إلى ضمير الجمع إشارةٌ إلى الرغبة الجماعيَّة لهؤلاء الدنيويّين بالتنافُس على حظوظ الدنيا وبهرجِها الزائل.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 183.

معنى (أل) في الموصوف والصفة:

العهد الذِّهنيّ، لا العِلم الحقيقيّ

ورد استعمال (أل) في كلٍّ من الموصوف والصّفة في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، والمراد بهما الجنس، أي: الحياة الكاملة المعلومة التي استقرَّت في أذهانهم صورتُها، لا التي يعرف أهلُ العلم حقيقتَها ومعانيها الكاملة التي خُلقت من أجلها، وأفاد التعريفُ الجنسيّ أنهم أطلقوا لأنفسهم العنانَ بالرغبة بالحياةِ كاملةً، حتى كأنها صارت علَمًا على الرغبة بحقيقةِ المباهج والبُهرج الزائف.

دلالة وصف الحياة بـ﴿ٱلدُّنْيَا﴾:

سفول المطلوب دليلٌ على سفول الطّالب

الأصل في الدُّنوّ الحصول في سُفل، ومن هنا استُعمِل الدُّنوُّ في الهبوط المعنويّ والقيميّ للشيء كما في قوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 61]. ومن هذا قالوا للخسيس السّاقط: إنَّه لَدَنيٌّ مِن أدنياء، وفي وصف الحياة بـ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ توبيخٌ لِمَن أرادها؛ إذ صرف همَّته ووجَّه إرادتَه لشيءٍ قليل القيمة خسيسِ القَدْر، ومنه يُعلم أنَّ الراغبين هم غالبيةُ الناس وأكثريّتُهم؛ ولذا عبَّر بضمير الجمع ﴿يُرِيدُونَ﴾، ولم يخصَّهم بوصفٍ كما خصَّ في مقابلهم أهل العلمِ بالذكر كما سيأتي.

دلالةُ النّداء في الآية:

استحضارُ التَّمنّي وبيان غايته، وبيان بُعد المطلَب واستحالته

آثرَ النظمُ الجليل استعمال (يا) في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا﴾ ويراد بها أمران؛ **أحدُهما** – وهو قولُ الفارسيّ –: إنَّها لمجرَّدِ التَّنبيه، فلا يُقَدَّر منادىً محذوفٌ، ولذلك باشَرَتِ الحرفَ، **والثّاني**: أنَّ المنادَى محذوفٌ، تقديرُه: يا هؤلاء ليت لنا[1].

وعلى التَّقديرين، فإنَّ دخول (يا) في النظم يشيرُ إلى أنَّ التَّمنّي الواقعَ من الّذين يريدون الحياة الدُّنيا إنَّما يُخبرونَ به أحدًا

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 4/ 34.

ويُعلنونه، فليس تمنّيًا خفيًّا في نفوسهم. وثَمَّ ملمحٌ آخر، وهو أنَّ ذِكر هذا الحرف (يا) بما فيه من إطلاق الصَّوت ومدّه مع الألِف يشير إلى بُعد المطلَب، وأنَّه ممّا يصعبُ أوْ يستحيلُ تحقيقُه، فإذا ما أُضيف إلى حرف التَّمنّي (لَيْتَ) أفاد بُعدًا فوق بُعد.

الغرض من التَّمنّي:

استعملَ النظمُ الكريم التمنّي بـ (ليتَ) في قوله: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ﴾، والتَّمنّي: طَلَبُ ما لا طمعَ فيه؛ كقول أبي العتاهية:

ألا لَيْتَ الشَّبابَ يَعودُ يَومًا *** فَأُخْبِرُه بِما فَعَلَ المَشيبُ

أوْ ما فيه عسرٌ، كقول المُعْدِم الآيس: ليت لي قنطارًا من الذَّهب[1].

هوَّل الجاهلونَ أمـر الـدُّنـيـا رغـم سُـفـولـه، فـطـمِـعـوا فيما رأوه مُستحيلًا في حصوله

واستعمالُ هذا الأسلوب في النظم كَشَفَ عن مدى تهويل الجاهلينَ لأمر الدُّنيا وشدَّةِ اغترارهم بها، حتى إنَّهم جعلوا ما رأوهُ مُستحيلَ الحدوث أوْ صعبَ النَّوال غايةً لهم، ويكشفُ التمنّي مع ندائه عن مدى اللهفة بتحصيل مطلوبهم، وذلك لشدّة غباوتهم وضعفِ إدراكهم.

دلالة (اللّام) في قوله: ﴿لَنَا﴾:

استعملَ النظمُ الكريم اللام في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ﴾، والأصل في معناها أنَّها موضوعةٌ للدَّلالة على الاختصاص والملك[2]؛ أي: إنَّهم تمنَّوا اختصاصَهم وتملُّكهم مثلَ ملك قارون الذي اختصَّ به، وفيه بيان أنَّ ما يُغري الجاهلينَ في الدُّنيا وزينتها هو معنى التَّميُّز عن غيرهم، والاختصاصِ دونهم، والشُّعورِ بالتَّملُّك وإن كان زائفًا زائلًا.

رغـبـةُ الامـتـلاك وتـمـنّـي الـتَّـمـيُّـز عن سائر النّاس

نكتةُ تقديمِ الخبر:

قُدِّم الخبرُ وهو شبهُ جملة على المسنَد إليه في قوله: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ لغرضِ الاهتمام به والدلالةِ على الاختصاصِ

الأهـمُّ - عند الـجـاهـلـيـن - مـن المـلـك هو اختصاصُهم به

(1) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 7/ 115.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.

والانحصار، فكأنَّهم يقولون: الأهمُّ هو كونه ﴿لَنَا﴾ لا لغيرنا، ثمَّ يأتي بيانُه بأنَّه مثلُ ما أوتي قارون. وهكذا يكون حالُ أهل الدُّنيا المتكالبينَ عليها طمَعًا في زينتها أن تكون لهم وحدَهم لا يشاركُهم فيها أحدٌ مع أنّها متاعٌ فانٍ وزائل.

سرُّ التَّعبير بلفظ (المِثْل):

المِثل أعمُّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة، والتَّعبيرُ به دليل الغبطة؛ تحرُّزًا من الحسد

آثر النظمُ استعمالَ لفظ (المثل) في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ﴾ وهو عبارة عن مشابهة الشَّيء لغيره في معنىً من المعاني، أيّ معنىً كان، وهو أعمُّ الألفاظ الموضوعة للمشابَهَة، وذلك أنَّ النِّدَّ يقال فيما يشاركُ في الجوهر فقط، والشَّبَهَ يقال فيما يشارك في الكيفيَّة فقط، والمُساوي يقال فيما يشارك في الكمّيَّة فقط، والشَّكل يقال فيما يشاركُه في القَدْر والمساحة فقط، والمِثْل عامٌّ في جميع ذلك؛ ولهذا لمّا أراد الله تعالى نفي التَّشبيه مِن كلِّ وجه خصَّه بالذِّكر، فقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: 11][1]. فمن هنا أوثر التَّعبير بالمِثْل في هذه الآية دون غيره؛ بكونه أعمَّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة، فكأنَّهم أرادوا أن يكونَ لهم مثلُ ما لقارونَ في حجمه ومقداره ومساحته وكمّيَّته وكيفيَّته، مبالغةً في تمنِّيهم. ثمَّ إنَّهم تمنَّوا مِثْلَ ما أوتي قارون لا عينه، حذرًا من الحسد[2]، ممّا يرجِّح كونَهم من المؤمنين لكن لجهلهم غرَّتهم الدُّنيا.

نكتةُ بناءِ الفعل للمفعول:

عِظَمُ الاهتمام بالنِّعمة والانشغالِ بها عن المنعِم الجليل

بناءُ الفعل ﴿أُوتِيَ﴾ للمفعول في كلام الَّذين يريدونَ الحياة الدُّنيا من الجاهلينَ مِن قومه؛ لمشاكلة قول قارونَ نفسِه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ مبالغةً في المثليَّة، كأنَّهم غرَّتهم حالُ قارون، فأرادوا مثلَ ما كان عليه قارونُ؛ فماثل قولُهم قولَه في البناء والتَّركيب، كأنَّه

(1) الراغب، المفردات: (مثل).

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 186، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 327.

الحكايةُ لقوله، وفيه تقديمُ الاهتمام بالنِّعمة والانشغال بها عن المنعِم الحقيقيّ، وفيه اعتراف ضمنيٌّ أنَّ قارون قد أوتي هذا المالَ ولم يكتسبْه بنفسِه.

علَّة فصل ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ عن سابقِه:

الجهلُ بالمآل مفضٍ إلى الوهم بالحال

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ عن سابقِه؛ لما بينهما من شبه كمال الاتِّصال؛ إذ إنَّ قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ استئناف بيانيٌّ ناشئٌ عن سؤالٍ مقدَّر بعد قوله: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾، فكأنَّ سائلًا سأل: وما سببُ تمنِّيهم ذلك؟ فجاءت الإجابة: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ أي: هو عِظَم حظِّه وبَخْتِه.

نكتةُ توالي المؤكِّدات:

شدّةُ الإعجابِ تقتضي كمالَ الانبهار

توالتِ المؤكِّدات في ذيل الآية من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، وهي كما يلي: حرف التَّوكيد (إنَّ) القائمُ مقامَ تكريرِ الجملة مرَّتين، واللّام المزحلقة الدّاخلةُ على الخبر، واسميَّة الجملة المفيدةُ للثُّبوت.

وهذه التَّوكيداتُ كنايةٌ عن التَّعجُّب والانبهار، حتَّى كأنَّ السّامع ينكرُ حظَّه فيؤكِّدُه المتكلِّم[1].

نكتةُ التنكير في الموصوف والصّفة:

من دواعي إعجابِ الجاهلِ بالدنيا الإبهامُ والمبالغة

آثر النظمُ الجليل التعبيرَ عن الموصوف والصّفة من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ بالتنكير والمبالغة، إذ نُكِّرت كلمة ﴿حَظٍّ﴾ للدَّلالة على التَّعظيم، ثمَّ جاء توكيدُ تلك العظمة بالوصفِ بها، كأنَّه قال: (إنَّه لذو حظٍّ فخمٍ عظيم)، وكأنَّه اتَّصفَ بعظمتين: عظمةِ الملك وعظمةِ الاختصاص، أوْ عظمةِ النّوعِ وعظمةِ الكمّ.

علَّة الوصل في الآية:

مقابلةُ مقالةِ الجاهلين بموعظةِ أولي العلْم الصّابرين

عطفَ النظمُ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ على جملة:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 183.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾، لأنها مشاركةٌ لها في معناها؛ إذ ترتبَ على خروج قارون بزينتِه موقفانِ كشف عنهما العطفُ: موقفُ الجاهلينَ بالمصير والمغرورينَ بالحال، فتمنَّوا حالَه وما هو فيه من نعمةٍ، وموقفُ العالمينَ بالحال والمآل، وأنها حالٌ زائلة ومآل مزرٍ وعقابٌ مخزٍ، فنصحوا الجاهلينَ بموعظةٍ بليغةٍ ودرسٍ محكَمٍ متين. وممّا حسَّن الوصلَ بين الجملتين اتّحادُ الجملتين في الخبريَّة، ووجودُ المغايرة بينهما، مع التَّلاؤم الفكريّ، فكلٌّ منهما تحكي مقالةَ فريقٍ ممَّن خرج عليهم قارونُ بزينته، ولكنْ كلتاهما نقيضٌ للأُخرى.

بلاغةُ الاحتباك في الآية:

اشتملَ النظمُ الجليلُ على فنٍّ بديعيٍّ يسمَّى (الاحتباك)، تقديره كما يلي: قال (الجاهلون) ﴿ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾، و﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ (الذين يريدون الدّار الآخرة) ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾، فحذفَ (الجاهلين) من الأولى، وجاء بمقابله في الثّانية ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ ليدلَّ عليه، وحذف من الثّانية (إرادة الدّار الآخرة) وجاء بمقابله: ﴿ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ للدلالة عليه على طريقة الاحتباك - إذ لمّا قوبل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ كان المعنيُّ بهم عامَّةَ النّاس وضعفاءَ اليقين الَّذين تُلهيهم زخارفُ الدُّنيا عمّا يكونُ في مطاويها من سوءِ العواقب، فتقصُرُ بصائرهم عن التَّدبُّر إذا رأوا زينةَ الدُّنيا، فيتلهَّفونَ عليها ولا يتمنَّونَ غيرَ حصولها، فهؤلاء وإنْ كانوا مؤمنينَ إلا أنَّ إيمانَهم ضعيفٌ؛ فلذلك عَظُم في عيونهم ما عليه قارونُ مِن البذخ، فقالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾؛ أي: إنَّه لذو

الجاهلون حقيقةَ الدُّنيا اغترّوا بها، والعالِمون يطلبون ما هو خيرٌ وأبقى

بختٍ وسعادة[1]. وإنَّما لم يوصفوا بإرادة ثواب الآخرة، تنبيهًا على أنَّ العِلم بأحوالِ النَّشأتين يقتضي الإعراضَ عن الأولى، والإقبالَ على الأُخرى حتمًا، وأنَّ تمنِّي المتمنِّين ليس إلّا لعدم علْمِهم بهما كما ينبغي[2]. وفي وصف المقابلِ لهم بالعلم زيادةُ توبيخ وتبكيتٍ وتهكُّم من ادِّعاء قارونَ العِلمَ في قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾؛ كأنَّما قال: هذا هو العلمُ الحقُّ، وهذا هو أثرُهُ.

نكتة التَّعبير بالموصول وصلته:

في التَّعبير بالموصول وصِلَته في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ استغناءٌ بذكر الوصف بجملةٍ كلاميَّة عن ذكر الاسمِ الخاصّ، لبيان سبب نجاتهم ممّا وقع فيه الجاهلونَ من الافتتان بزينة قارونَ الزّائفة وملكه الزّائل وبيان شِدَّة اتّصافهم بالعلم ورسوخهم فيه. فإيثار التَّعريف بالموصوليَّة كان لأجل تحقيق الوصفِ بما تضمَّنته جملة الصِّلة، وبيانِ العلَّة في الحكم، فإنَّما نَجَوْا من الافتتان بزينة الحياة الدُّنيا لكونهم من أولي العِلم، فضَّلهم اللّه تعالى به على كثير ممَّن خلقَ.

تقوية المعنى بتحقيق الوصف المتضمَّن في جملة الصِّلة، وبيانُ سبب الحُكم والعلَّة

نكتةُ بناء الفعل الماضي للمفعول:

آثر النظم التعبير عن الإيتاء بالفعل الماضي المبني للمفعول من قوله تعالى: ﴿أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ دلالةً على تحقُّق الوقوع وإشارةً إلى رسوخهم في العلْم، أو إلى وصولهم لغايةِ العلم وثمراته الحقيقيَّة، وهي معرفةُ حقيقة الدُّنيا؛ فلم تغرَّهم، وحقيقةِ الآخرة؛ فطلبوها ورغِبوا ورغَّبوا فيها، وإنَّما بُني الفعل لما لم يُسَمَّ فاعله؛ للعلْم بالفاعل، وللاهتمام بالفعل نفسه؛ لكونه عِلَّةَ ما بعده.

الوقوعُ والتَّحقيق بتوكيد المعنى حقيق

معنى تعريف ﴿ٱلْعِلْمَ﴾:

ورد في النظم ﴿ٱلْعِلْمَ﴾ معرفًا بـ(أل) للجنس من قوله تعالى:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 183.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 327.

﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾؛ أي: العلمَ النّافع الذي ينجو به صاحبُه، أو العِلمَ الحقَّ لا الباطلَ الّذي ادَّعاه قارونُ مُعجَبًا ومفتخِرًا بنفسه الأمّارة بالسّوء.

التّعريف في العلم إشارةٌ إلى المعهود في أذهان العالمين، لا ما ادَّعاه قارونُ اللّعين

توجيهُ المراد بالوَيل مضافًا:

ورد الويلُ في النظم الكريم من قوله تعالى: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾، وهو اسمٌ للهلاك وسوءِ الحال، ويُستعمَل لفظ (ويل) في التَّعجُّب المشوبِ بالزَّجر، فليس الّذين أوتوا العلم داعينَ بالويل على الَّذين يريدونَ الحياة الدُّنيا؛ لأنَّ المناسبَ لمقام الموعظة لينُ الخطاب؛ ليكون أعونَ على الاتِّعاظ، ولكنَّهم يتعجَّبونَ من تعلُّق نفوس أولئك بزينةِ الحياة الدُّنيا، واغتباطِهم بحال قارون دون اهتمامٍ بثواب الله الذي يستطيعونَ تحصيلَه بالإقبال على العمل بالدِّينِ والعمَل النّافع، وهم يعلمونَ أنَّ قارون غيرُ مُتخلِّق بالفضائلِ الدِّينيَّة[1]. وقد وقعَ ﴿وَيۡلَكُمۡ﴾ مقولًا للقول؛ فهو مقولٌ جامعٌ للتنفير من هذا التمنّي الشّنيع الدالِّ على الجهل بالحال والمآل.

التَّعجُّبُ من حال الجاهلين، ومبالغةُ زجر الواعظينَ للظالمين

علّة الفصل في الآية:

فُصِل قوله تعالى: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾ عن القول ومقوله السّابق لكونه استئنافًا بيانيًّا. فكانَ بين الجملتينِ شبهُ كمال اتِّصال، كأنَّهم لمّا قالوا لهم: ﴿وَيۡلَكُمۡ﴾ سألوا: لماذا؟ فقالوا بيانًا لسببِ قولِ الويلِ مستأنفينَ: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾، والمعنى: قلنا لكم هذه الكلمةَ الزّاجرةَ والواعظة والمنبّهة للغافلينَ من قوّتها وتأثيرها في المخاطبينَ؛ لأن قولكم السّابق استبدالُ الذي هو أدنى بالذي هو خير.

استئناف بيانيٌّ لسبب التَّعجُّب والزّجر

نكتة تقديم المسند إليه:

قُدِّم المسند إليه في قوله تعالى: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾؛ لأنه الأصلُ، وليتمكَّن الخبرُ في ذهن السّامعين؛ لأنَّ الابتداءَ بما يدلُّ على

الابتداء بما تتشوّف إليه النَّفس، وتمكينُ الخبر من الحِسّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 183.

الثَّواب المضاف إلى أجودِ الكرماء كرمًا هو ممّا تستشرفُ إليه النَّفس وتتشوّق[1].

دلالة الإضافة:

الإضـافـة إلى العظيم تفيد التَّفخيم والتَّعظيم

أُضيف (الثواب) إلى لفظ الجلالة ليدلَّ بالإضافة إليه على التَّعظيم والتَّفخيم؛ فيكتسبُ المضاف من المضاف إليه التَّعظيم. ثمَّ في الإضافة إلى لفظ الجلالة (العَلَم) على الذّات الإلهيَّة ما يدع القارئَ أو السّامعَ المخاطبَ يتفكَّر في صفات الله ﷻ المتعلِّقة بالعطاء والثَّواب، فيعظُم الثَّوابُ في نفسه، ويكون أعظمَ أثرًا في التَّرغيب فيه. كما تضمّنتِ الإضافة إلى لفظ الجلالة ردًّا على ما اقتضاه قولُ قارون السّابق من امتلاكِه المالَ بعلمِه وذكائه، فأسندوا الثوابَ إلى الله تعالى ليُعلَم أنَّ كلَّ خيرٍ من الله تعالى، ولا يجوزُ إسنادُه إلى العبدِ وطاقاته وقدراته المحدودة، وأنْ لا مقارنةَ بين ما يحصل عليه العبدُ بهمه وإرادتِه وما يتحصَّل عليه بفضل الله وعظيمِ كرمه. وأخيرًا أفادتِ الإضافة ردًّا على ما يقتضيه تَمَنّيُهم السّابق من الحصولِ على فتاتٍ من كرم قارون بأنَّ ثوابَ الله خيرٌ وعطاءٌ بلا حدود، وكرم بلا منّة ونعمةٌ بلا قيود.

نكتةُ تنكيرِ المسند:

جـــوازُ دلالـــة الـتَّـنـكـيـر على الـتَّـعـظـيـم والتَّكثير

التَّنكيرُ في ﴿خَيْرٌ﴾ يدلُّ على التَّكثير، فيشمل جوانبَ كثيرةً من الخيريَّة؛ فيكون ثوابُ الله أكثرَ عددًا، وأعظمَ، وأنفعَ، وأبقى، وأعلى. ويجوز أنْ يدلَّ على التَّعظيم أيضًا، فكأنَّما قالوا: (ثواب الله أعظم خيرًا)، والنِّكاتُ البلاغيَّة تتزاحمُ ولا تتعارضُ، وبذلك يكون ثواب الله جامعًا للتفوُّق النوعيِّ والكمّيّ، الذي دلَّ عليه سابقًا قولُه: ﴿أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 183.

نكتةُ حذفِ المفضَّل عليه:

في حذفِ المفضَّل عليه تعظيمٌ للمفضَّل

حُذِف المفضَّل عليه في قوله تعالى: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾، وتقديره (ما تتمنَّونه)؛ لاقتضاء المقام إيّاه، أي: ثواب الله خير ممّا تتمنَّونه من مِثل ما أوتي قارون. ويجوزُ أن يقدَّر عامًّا، ويدخلُ فيه ما ذُكِر دخولًا أوليًّا؛ أي: خيرٌ من الدُّنيا وما فيها[1]. وفي حذف المفضَّل عليه تعظيمٌ للمفضَّل، كما في قولنا: (اللهُ أكبرُ)[2].

معنى (اللّام) في قوله: ﴿لِّمَنۡ﴾:

تخصيصُ ثواب الله وقَصْرُه على مَن عمِلَ صالحًا بعد أنْ آمن بِهِ

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الاختصاص[3]، وهذا هو معناه في قوله تعالى: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾؛ أي: إنَّ ثواب الله ﷻ إنَّما هو خاصٌّ بمن آمنَ به وعمِلَ عمَلًا صالحًا؛ تنبيهًا أنَّ مَن لم يؤمنْ ويعملْ صالحًا فهو محرومٌ من هذا الثَّواب، وليس له شيءٌ منه ألبتَّة.

نكتةُ الإظهار في موضِعِ الإضمار:

عمومُ حصولِ الثَّواب لمَن حقَّقَ الشَّرطَ واستجاب

عدلَ عن الإضمارِ إلى الإظهار بالموصوليّة في قوله: ﴿لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ دون: خيرٌ لكم، لما في الإظهار مِن الإشارة إلى أنَّ ثواب الله إنَّما ينالُه المؤمنونَ الَّذين يعملونَ الصّالحات، وأنَّه على حسب صِحَّة الإيمان ووفرةِ العمل، مع ما في الموصول من الشُّمول والاستيعابِ الّذي تدلُّ عليه الغَيبةُ لَمن كانَ منهم كذلك، ولغيرهم ممَّن لم يحضُرْ ذلك المقام[4].

دلالةُ التَّعبير بالماضي:

رسوخُ الإيمان وتحقُّقُ حصوله، ونفيُ الشَّكِّ النّاقضِ لأُصولِه

يفيدُ التَّعبيرُ بالماضي في قوله: ﴿لِّمَنۡ ءَامَنَ﴾ تحقُّقَ حصولِ الإيمان وتأكُّدَه، ممّا يقوّي معنى رسوخِ الإيمانِ وثباته، ونفيَ الشَّكِّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 327.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 59.
(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 183.

النّاقضِ له، وفي الصّلة وما عُطِفَ عليها إشارةٌ إلى علّةِ تخصيصِ الثواب بالمذكورين؛ وهو أنّهم جمعوا بين الإيمانِ والعمل الصّالح.

نكتةُ حذف المتعلّق:

حُذِف متعلِّق الفعل في قوله: ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ﴾ للعلْم به، والتَّقدير: (لمَن آمنَ باللّه تعالى حقَّ الإيمان)، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الإيمان الحقَّ إنَّما هو الإيمان بالرَّبِّ ﷻ، وأمّا ما سواه فلا اعتبارَ به، إذ هو كالعدم، فإذا أُطلِق الإيمانُ فهو الإيمانُ باللّه ﷻ.

إذا أُطلِق الإيمان فهو الإيمان باللّه العظيم، إذ هو الحقُّ وما سواه باطلٌ كالعديم

نكتةُ عطف العمل الصّالح على الإيمان:

عُطِف العمل الصّالح على الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ وهو دالٌّ على المغايرة بينهما، إذ الإيمان هو التصديق، وللجمع بين ما وقرَ في القلب من تصديقٍ وعُمِل بالجوارح؛ ليتحقّقَ الإيمانُ الكامل الجامعُ بين العلْم والعمل. أوْ أنه من باب عطف الخاصّ على العامّ؛ لأنَّ العَمَل داخلٌ في مُسمَّى الإيمان الكامل، وعطف الخاصّ على العامّ لبيان الاهتمام بالمعطوف كما وقعَ الاهتمامُ بالمعطوف عليه، وإنْ كان التأخيرُ للعمل دالًّا على أنَّ العمل بلا إيمانٍ وتصديقٍ لا نفعَ فيه.

العطفُ يقتضي المغايرة

بلاغة الإيجاز بحذف المفعول به:

حُذِف المفعول به، وهو (عمَلًا) إيجازًا، واكتُفي بصفته ﴿صَٰلِحًا﴾؛ لأنَّ الصِّفة هي المتعلّقة بغرض السِّياق، وعليها مدارُ الحصول على ثواب اللّه الذي هو خيرٌ، وهو كون العمل صالحًا؛ فاقتُصِر على الصِّفة إبرازًا لمكانتها، وتوكيدًا لأهمِّيَّتها.

الصَّلاح هو المتعلَّق بغرض السِّياق، وفي ميدانه يكون الاستباق

دلالةُ التنكير:

جاءت كلمةُ ﴿صَٰلِحًا﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ للدَّلالة على العموم؛ ليشمل التَّعبيرُ كلَّ عملٍ صالح. ويصحُّ أن يكون التَّنكير لبيان النَّوع أو الصِّنف؛ يعني: نوعًا خاصًّا من الصَّلاح، وهو ما كان خالصًا لله تعالى، وموافقًا لسنَّة النَّبيِّ ﷺ.

جواز دلالة التَّنكير على العموم غير المعيَّن، وعلى إرادة النَّوع أو الصِّنف المبيَّن

بلاغة التَّذييل في الآية:

مَن صبرَ ظفرَ

في تذييلِ الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ حصولَ الثَّواب من اللّه تعالى يحتاجُ إلى صبرٍ عن شهواتِ الدُّنيا وزينتِها، وصبرٍ على فعلِ الطّاعات ومشقَّتها، وصبرٍ على الإيمانِ والاعتقاد ومتطلّباته بمحاربةِ الشّكوك والأوهام والظّنون، وأنَّ قولَ الجاهلين وتَمَنّيَهم مثلَ ما أوتي قارونُ إنَّما سببُه أنَّهم لم يحقّقوا مقامَ الصَّبر ممّا قد يضيّع عليهم ثوابَ الآخرة؛ لذلك نبَّههم أولو العلم وصرخوا فيهم بقولهم: ﴿وَيۡلَكُمۡ﴾!

معنى (الواو) في ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾:

الاحـتراسُ عن الإيمان والعمل المنقطعين

يجوز أن تكون (الواو) للعطف، فهي من كلام الّذين أوتوا العلمَ، فهُم قد أمَروا الذين فَتَنَهم حالُ قارون بأنْ يرجوا ثوابَ اللّه المعدَّ لمن آمنَ وعملَ صالحًا، ولا ينالُ الثوابَ والجنّةَ إلا الصّابرون على ما حُرموا من حالِ قارونَ، وعلى الإيمان والعمل الصالح. ويجوز أن تكون (الواو) اعتراضيَّة، والجملةُ معترضةٌ من جانب اللّه تعالى، علَّم بها عبادَه فضيلة الصَّبر، وأكَّد بها كلامَ أولي العلْم الذين يهدونَ عباده إلى سبيله[1]. وسواءٌ كانت الجملةُ من كلام أهلِ العلْم أوْ من كلام اللّه تعالى؛ فإنَّ وظيفة الجملة الاحتراسُ من عدمِ الثبات على الإيمان والعمل الصّالح بالانشغالِ عنهما بالتمنّي والتشهّي لحال الظالمين؛ فإنّه محبطٌ لهما مضيّعٌ للدين، وغفلةٌ عن الحقِّ المبين، فذكر أنَّ ذلك الثواب منحصرٌ بالصّابرين على الإيمان والعمل الصّالح.

سرُّ إيثار النَّفي بـ(لا):

سُـنَّـةُ الـلـه لا تـتـبـدَّلُ بتغيُّر الأزمان

آثرَ النظمُ الجليل التعبيرَ عن النفي بـ(لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ التي تُستَعمَل لنفي الفعل مطلقًا دون تقييد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 183.

هذا النَّفي بزمن، ذلك أنَّ (لم) تنفي الحدثَ في الزَّمان الماضي، و(لن) تنفي الحدثَ فيما يُستَقبَل مِن الزَّمان، أمّا (لا) فهي لمطلَق النَّفي ماضيًا ومستقبَلًا، ممّا يدلُّ على عموم هذا الحُكم، وأنَّ سنَّة الله ﷻ لا تتبدَّل ولا تتغيَّر.

دلالة التَّعبير بالمضارع المجهول:

من شأنِ الصّابرين تلقّي الثوابِ والإحسان

عبّر النظم بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ وهو من حيث الدَّلالة الزَّمنيَّة يفيدُ وقوعَ الحدثِ في الحال أوِ الاستقبال، ويدلُّ على التَّجدُّد والاستمرار، ففيه تحريضٌ للنّاس على التَّحلّي بخُلُق الصَّبر حتى يَلْقَوا هذا الثَّواب العظيم، وأنَّ الأمر ليس مجرَّد إخبارٍ عن حال أحدٍ ممَّن مضى، وإنَّما الثَّواب يتجدَّد بتجدُّد العمل، فكلَّما حقَّق أحدٌ معنى الصَّبر فإنَّه ينال الثَّوابَ الموصوفَ في الآية، وفي هذا تهييجٌ للنّاس حالًا لا مآلًا على التَّخلُّق بالصَّبر وحمل النَّفس عليه. وأمّا البناء للمفعول في ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ فلتَعَيُّنِ المسند إليه (الفاعل) لدى المخاطَب على الحقيقة، والعلمِ به، وهو الله تعالى، إشارةً لعِظَمِ العطاء، ورفعةِ الجزاء.

إيثارُ التَّعبير بالقصر نفيًا واستثناءً:

مجابهةُ إنكار المغترّينَ بحقيقة قَصْرِ الثَّواب على الصّابرين

أوثر التَّعبيرُ بالقصر نفيًا واستثناءً في قوله: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾؛ لأنَّ القصر بالنَّفي والاستثناء يكونُ فيما يُنكِرُهُ المخاطَب[1]. ذلك أنَّ المفتونين بالدُّنيا وزينتها لمّا تمنَّوا مثل ما أوتي قارون وأكَّدوا أنَّه ﴿لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ - مع ما علِموه مِن بغيِهِ على قومه، وبُخله بماله، ونسبتِه الفضلَ لنفسه، وجحْدِه نعمةَ الله تعالى عليه - نُزِّلوا منزلة مَن أنكر أنَّ ثواب الله تعالى خير ممّا أوتي قارون، وأنَّ هذا الثَّواب مقصورٌ على المؤمنين الَّذين يعملون الصّالحات، وأنَّ هذه الفضيلة جائزةٌ عظيمة ينالها الصّابرون المحتسبون، فلأجل

(1) السامرائي، معاني النحو: 2/ 250 - 251.

هذا جيءَ بالقصر على طريقة النَّفي والاستثناء؛ للرَّدِّ على إنكار المفتونين بالدُّنيا لهذه الحقيقة، كما دلَّ عليه تمنِّيهم دونَ تروِّيهم. واقتضى المقام نفيَ حصول الثَّواب عن صنفٍ وإثباتَه لصنفٍ آخر.

بيانُ مرجع الضَّمير في ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾:

الضّمير كاشفٌ للمفهوم وهو الفضيلة، أوِ الخصلةُ الجميلة

الضَّميرُ البارز المتَّصِلُ في ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ عائدٌ إلى مفهومٍ من الكلام يجري على التَّأنيث؛ أي: الخصلة أوِ الفضيلة، وهي ثوابُ الله أو السِّيرة القويمة، وهي سيرةُ الإيمان والعمل الصّالح[1]، أوْ للكلمة التي قالَها العلماءُ، أوْ للإنابة؛ لأنَّها في معنى الثواب، أوْ للأعمال الصّالحة[2]. ويمكنُ أنْ يكون تفسيرًا لثواب الله بعد استعارته للجنة، فيكون عائدًا إليه باعتبارِ المستعارِ له وهو الجنة.

بلاغةُ استعارة التَّلقّي:

الصَّبر خيرُ وسيلةٍ لنوال الأمور الجليلة

التَّلقّي: هو جعلُ الشَّيء لاقيًا؛ أي: مُجتمعًا مع شيءٍ آخر؛ كقوله تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥﴾ [الفرقان: 75]، وهو مستَعمَلٌ هنا في (الإعطاء) على طريقة الاستعارة التصريحيّة التبعيَّة. أي: لا يعطى تلك الخصلةَ أو السِّيرة القويمةَ أو الجنةَ إلّا الصّابرون؛ لأنَّ الصَّبر وسيلةٌ لنوال الأمور العظيمة، لاحتياجِ السَّعي لها إلى تجلُّد؛ لما يعرضُ في خلاله من مصاعبَ وعقبات، فإنْ لم يكن المرء متخلِّقًا بالصَّبر خارت عزيمتُهُ فترك ذاك لذاك[3].

معنى (أل) في قوله: ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾:

لا عبادةَ تعادلُ الصبر

آثر النظم الجليل استعمال (أل) الموصولة مع الوصف في قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ لإفادة العموم؛ وللإشارة إلى علة الحكم لما في الصلة من معنى الصبر الذي كان علةً لنيل ذلك الجزاء العظيم. وفي الموصول وصِلَتِه تعريضٌ بالمفتونين بالدُّنيا المريدين لزينتها بأيّةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 185.
(2) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1026.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 185.

وسيلةٍ كانت، غيرَ مبالين بحِلٍّ ولا حُرمة، فلم يَصبروا على حلالٍ قليل، ولم يَصبروا عن تمنِّي حرامٍ وبيل.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخروج والبروز:

الخروجُ نفاذٌ من شيء، والبروز لا بُدَّ فيه من ظهور قويٍّ وانكشاف

أصلُ البروز ظهورُ الشَّيء ظهورًا قويًّا وبُدوُّه وانكشافُه[1]. وأصلُ الخروج يدلُّ على النَّفاذ عن الشَّيء أو الحيِّز[2]. فيكون الخروج أعمَّ من البروز، ولذا قد يخرجُ الشَّيء ولا يكون بارزًا، بخلافِ البروزِ المستلزمِ للخروج.

الزينة والزخرف:

الـزّيـنـةُ أصـلُ حُسْنِ الـشَّيء، والـزُّخـرُف كمالُ حُسنِه

أصلُ الزّينة يدلُّ على حُسن الشَّيء وتحسينِه، وهو خلافُ الشَّين[3]، والزّينةُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُتَزَيَّن به[4]. والملحوظُ في معنى الزّينة مطلقُ الحُسنِ سواءٌ في الشّيء، أوْ مطلقُ التحسينِ، أوْ مطلقُ ما يُستحسَنُ. بخلاف (الزُّخرف)، فهو شيءٌ مُستَطْرَف من دقاقٍ كثيرةٍ تعلو ظاهرَ الشَّيء نافذةً منه، تُستَمْلَح لدقَّتها وانتظامِها[5]. وهو الزّينةُ المُزَوَّقة[6]. فهو أخصُّ من حيث إنَّه كمالُ حُسنِ الشَّيء[7]، فهو زينةٌ وزيادةٌ من حيث الكمّ، فيكون كمالَ حُسنِ الشَّيء، ومن حيث الكيف، فيكون زينةً مزوَّقةً.

العظَم والكِبَر:

الكِبَر زيادة في الكمِّ، والعِظَم زيادة في الكمِّ والكيف

أصلُ الكبَر نموُّ حجمِ الشَّيء أوْ زيادتُه بالنِّسبة لحجمِه أوْ لحجمِ غيره[8]، فيكون من الأسماء المُتَضايِفَة، التي تقال عند اعتبار بعضها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ وجبل، المعجم الاشتقاقي: (برز).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فرج).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (زين).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (زين).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (زخرف).
(6) الراغب، المفردات: (زخرف).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (زخرف).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (كبر).

ببعض؛ إمّا بحسب نفسه في حالٍ سابق، يكون هو الآن كبيرًا بالنِّسبة لحاله السّابق. أوْ بحسب غيره فيكون صغيرًا في جنب شيء، ويكون كبيرًا في جنبِ شيءٍ غيره[1]. ويُستعمل في الكَمِّيَّة المتَّصلة – التي بينَ أجزائها حدٌّ مشتركٌ – كما في الأجسام، وقد يتعاقبُ مع الكثير، فيُستَعْمَل في الكمِّيَّة المنفصلةِ – التي لا يكونُ بين أجزائها حدٌّ مشتركٌ – أيضًا بنظرينِ مختلفينِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: 219][2]. ثمَّ استُعمل في معنى زيادة الرِّفعة والمنزلة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ [الأنعام: 19][3]. وأصلُ العِظَم يدلُّ على كبَر وقوَّة[4]، وغلظِ جسامةٍ أوْ صلابةٍ في الشَّيء[5]. وعظُم الشَّيء أصلُه: كَبُر عَظْمُه، من الكبَر والزيادة في الأجزاء المحسوسة، ثمَّ استعيرَ لكلِّ كبير، فأجري مجراه محسوسًا كانَ أوْ معقولًا، عينًا كان أوْ معنى[6]. والعظيم إذا استُعمل في الأعيان فأصلُه أن يقالَ في الأجزاء المتَّصلة، والكثيرُ يقال في المنفصلة، ثمَّ قد يقالُ في المنفصل عظيمٌ، نحو: جيش عظيمٌ، ومالٌ عظيم، وذلك في معنى الكثير[7]. واستُعمل في الضخامة المعنويّة كما في عظم الشَّأن والأمر[8].

والملاحظُ في الكبر معنى زيادةِ الحجم بنموٍّ، وهي زيادةٌ في الكمّ متَّصلًا كان أوْ منفصلًا من غير اعتبارٍ لكيفيّة هذه الزِّيادة، وبغضِّ النَّظر عن كون هذه الزِّيادة مع صلابةٍ وغلظِ جسامةٍ وقوَّةٍ أم لا. أمّا العِظَم فمع كونه زيادةً في الحجم، التي هي زيادةٌ في الكمّ متَّصلا كان أوْ منفصلًا، إلا أنَّه يلاحظ في هذه الزِّيادة كونها على كيفيّة معيّنة، وهي ما فيه قوَّة وصلابةٌ وغِلظُ جسامة.

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كبر).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كبر).
(3) الراغب، المفردات: (كبر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عظم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عظم).
(6) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عظم).
(7) الراغب، المفردات: (عظم).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عظم).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والأربعون،
سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 41 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-92-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 41 : المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-92-1
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-2914887 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»